الفكر الإسلامي

ملحق العلم

إضاءات

«.. كلما أمعن الإنسان في سلم الحضارة وتعقدت حياته ومشكلاته وتشابكت مصالحه وتصادمت مع مصالح الآخرين كانت حاجته إلى الدين ألزم وأكد»

فتح الله سعيد

السنه الثالثه العدد 84 الجمعة 13 جمادى الاولى 1414 هـ الموافق 29 اكتوبر 1993 العلم. ص.ب. 141 الرباط الهاتف: 19.24.73.20/73.24.37/73.02.73

أثر القرآن الكريم في عالمية اللغة العربية

«ان العربية، لغة القران، اصبحت اللغة العالمية في جميع الأقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد، كالسريانية واليونانية والقبطية...»

كوستاف لوبون

إن اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم في المستقبل»

ماسينيون

بقلم: د. عبد العزيز بنعبد الله
عضو اكاديمية
المملكة المغربية والمجامع العربية

لسنا في حاجة الى بيان الدور الذي اضطلعت به اللغة العربية كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الاحساسات وارق العواطف يكفي أن نراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذي عز نظيره في معظم لغات العالم.

ففي مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والأدبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هي القوام الأساسي للتفاهم بين العلماء والتعبير عن اعمق النظريات التقنية يوم كانت الحضارة العربية في عنفوان ازدهارها ويكفي ان تتصفح كتابا علميا او فلسفيا لتدرك مدى هذه القوة وتلك السعة الخارقة ففي العربية «مقدرات» شاسعة لايتوقف حسن استغلالها الا على مدى ضلاعتنا في فقه اللغة.

والكل يعلم انه منذ واخر القرن الهجري الأول «انبثقت حركة فكرية واسعة أذكت جامعات الشرق ولم تستفد من هذه الحركة ــ كما يقول مؤلف «المعجزة العربية» السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وانما استفاد منها شعب عاش لحد ذلك التاريخ خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن هنالك في الظاهر ما يحذوه الى الاضطلاع بالدور الخطير الذي قام به مع ذلك في تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربي.

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ اعرق عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجع الى الثمار المادية والروحية التي جنتها من الاسلام ومن لغة القرآن اكثر منها الى القرار الذي اتخذه الأمويون بجعل العربية اجبارية في الوثائق الرسمية وخلال القرن الثاني الهجري بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الأدنى، وتمخض هذا الانحلال عن «أكبر فوضى في اللغات والأديان» فقد بدأت شعوب عريقة في الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثنا الخاص وعوائدها لتنصهر مع ثقافة القرآن ولغة القرآن.

وقد أوضح كوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» (1) ان العربية لغة القرآن اصبحت اللغة العالمية في جميع الأقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية..»

وقد عربت أهم المصنفات اليونانية في عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب على دراسة الآداب الأجنبية بحماس «فاق الحماس الذي اظهرته اوربا في عهد الانبعاث» وقد خضت اللغة العربية بصفتها لغة القرآن الذي نزل على سبعة احرف لمقتضيات الاصلاح الجديد فانتشرت في مجموع انحاء آسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة وقد قضت حتى على اللاتينية لاسيما في شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والاندلس) حيث ندد الكاتب المسيحي «الفارو» ــ وهو من رجال القرن التاسع الميلادي ــ بجهل مواطنيه باللاتينية قائلا: «ان المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لابقصد تنفيذها بل من اجل التمرن على الأسلوب الصحيح الأنيق.

ولغة أهل الكلام رغم تباين منابعها هي لغة القرآن وقد اكد المؤرخ «دوزي» (2) ان اهل الذوق من الاسبان بهرتهم نصاعة الأدب العربي واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين.

كما نقل «دوزي» عن صاحب كتاب «الوسي موزار ايب دوطوليد «ان العربية ظلت اداة الثقافة والفكر في اسبانيا الى عام 1570م.

ذلك ان العربية قد اكتسبت منذ فجر الاسلام معظم مقوماتها بفضل اثر الفكر القرآني. نعم ان اللغة العربية التي بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة في العهد الجاهلي ادركت في القرن الرابع الهجري اي في عنفوان العصر العباسي ابان تبلور الفكر القرآني اوج كمالها وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي في هذا القرن ووصف «فيكتوربيرار» اللغة الأساسية مرونة وروعة فهي كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز ورقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير» فهذه الجزالة والدقة والروعة الفنية غيض من فيض القرآن الذي مازالت عجائبه تدهم الفكر الانساني بايداعاتها التي تتحلل الاشطر في رشاقة انتظامها ورواء تصانيفها.

ان نفوذ اللغة العربية اصبح بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية ايقن بأن العربية هي «الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب» وان رجال الكنيسة اضطروا الى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها في الكنائس الاسبانية وان «جان سيفيل» وجد نفسه مضطرا الى ان يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس (3).

وقد كان للغة القرآن اثر فعال من التقريب بين لغة الأدباء ولهجات العوام فقد اكد جوستاف لوبون (ص 472) «ان العربية من اكثر اللغات انسجاما فهي وان كانت تحتوي على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير ان هذه اللهجات لاتختلف فيما بينها الا بفوارق جد طفيفة بينما نلاحظ ان سكان قرية في شمال فرنسا لايفهمون كلمة من اللهجات المستعملة في قرى الجنوب نرى سكن شمالي المغرب الاقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز «وقد قال الرحالة «بوكارد» ان كل من عرف احدى هذه اللهجات فهم سائرها بدو عناء». وقد علمنا القرآن كيف نقتبس من مختلف اللهجات اجود مصطلحاتها في مختلف المجالات، فكان عدد هذه المصطلحات في القرآن مائة مصطلح، وفي الحديث الشريف ثلاث مائة، وقد نتج عن ذلك ذيوع العربية كلغة للفكر والحضارة.

ومعلوم ان الجامعة الأوروبية عاملا مهما في ذيوع اللغة العربية التي اصبحت في العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون بل اصبحت لغة دولية للحضارة ففي عام 1207 م. لوحظ وجود معهد في جنوب اوربا لتعليم اللغة العربية ثم نظم المجمع المسيحي العالمي بعد ذلك تعليمها في اروبا وذلك باحداث كراسي في كبريات الجامعات الغربية وفي القرن السابع عشر اهتمت اوربا الشمالية والشرقية اهتماما خاصا بتدريس اللغة العربية ونشرها ففي 1636 قررت حكومة «السويد» تعليم العربية في بلادها ومنذ ذلك العهد انصرفت «السويد» الى طبع ونشر المصنفات الاسلامية وبدأ «روسيا» تعنى بالدراسات الشرقية والعربية خاصة في عهد البطرس الأكبر الذي وجه الى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين وفي عام 1769 قررت الملكة «كاترينا» اجبارية اللغة العربية وفي عام 1816 احدث قسم اللغات السامية في جامعة «بتروكراد». ولابدع اذا انتجت وحدة فكرة عالمية بين الشعوب الاسلامية خاصة حيث كانت اداة هذه الوحدة هي لغة القرآن.

وقد اتجه اقتباس اوربا من العربية نحو الميدان العلمي فدخلت الى اللغات الاوروبية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والاكسير والجبر واللوغريتم وقد استمد الاسبان ــ حسب ليفي بروفنصال ــ معظم أسماء الرياحين والازهار من العربية ومن جبال البراني انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والزعفران ومجموع مصطلحات الري هي كذلك من اصل عربي كما تحمل الحلي في اسبانيا اسماء عربية ويتجلى نفس التأثير في الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت اسبانيا وبواسطتها امريكا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا.

وقد لاحظ عالم ايطالي كبير ان معظم التعابير العربية التي تغلغلت بكيفية مدهشة في لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري ولكن بفضل اشعاع الاسلام الثقافي.

بل ان الاصلاح الخاص بالكنيسة تأثر الى حد بعيد بالطابع العربي فقد اعترف «البارون كارادوف» مؤلف «فكرة الاسلام» وهو مسيحي متحمس بأن الاسلام علم المسيحية منهاج في التفكير الفلسفي هو ثمرة عبقرية ابنائه الطبيعية وان مفكري الاسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التي استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك استكمال عقيدتها جوهرا وتعبيرا وهذه ظاهرة لاسيما اذا اعتبرنا مدى مساهمة الفلسفة الاسلامية في تكوين «علم الكلام» Theology خلال القرون الوسطى والدور الذي قام به في ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثير على اشهر مفكري المسيحية.

وقد عبر الاستاذ «ماسينيون» عن نفس الفكرة قائلا «ان المنهاج العلمي قد انطلق اول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الاوروبية.

ثم قال: «ان العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية ان تضفي سربال الفتوة على التفكير الغربي كما انعشت «الف ليلة وليلة» في القرن السابع عشر الميلادي ذهنية اوربا التي اتخمتها اساطير الاغريق والرومان.

وقد ختم «ماسينيون» وصفه الرائع قائلا: «ان اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم في المستقبل

الهوامش:

1ـ الطبعة الفرنسية ص 473

2ـ تاريخ مسلمي اسبانيا، (ج 1ص 817)

3 ــ منذ القرن العاشر الميلادي تبنى اليهود لغة الفاتحين كلغة علمية في افريقيا وغيرها ويجدر ان نذكر الحبر يهودا بن قريش لما يمتاز به كتابه في فقه اللغة المقارن والذي وجه ذلك في العهد الى بيعة فاس (كوادر ص 454)